مجلة المجمع العلمي

مجلة المجمع العلمي

فصلية محكمة أنشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

الجزء الأول . المجلد الثاني والستون

١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

تطور رثاء المدن الأندلسية
من القرن الخامس الهجري حتى سقوط غرناطة ٨٩٧هـ

الدكتورة فدوى عبد الرحيم قاسم عودة
فلسطين

الملخص :

هذا اللون من الرثاء مشرقي الجذور ، نبت في عهد الحضارات السامية القديمة ، مارّا بالعصرين الجاهلي والعباسي ، لكن هذا الفن تطور واستوى على سوقه في الديار الأندلسية ، حيث سار بثلاثة مسارات أولها: بكاء المدن التي دمرتها الفتنة البربرية ، وثانيها : بكاء الممالك التي سقطت على يد القائد المرابطي " يوسف بن تاشفين" ، وثالثها : المدن التي سقطت في يد الإسبان .

تطور هذا الشعر في الأندلس لأسباب كثيرة منها: الفتن الداخلية التي اجتاحت عاصمة الخلافة "٣٩٩- ٤٢٢هـ" ، سقوط "بربشتر" أولى محطات الألم تلتها "طليطلة" "وبلنسية" ، الصراع على كرسي الحكم بين ملوك الطوائف ، وما رافق ذلك من فساد وأحقاد ، هزيمة الأندلسيين في معركتي " العقاب" "وبطرنة" وما تلاه من سقوط المدن الأندلسية متتابعة ، تهاون المسلمين واسترسالهم بالشهوات والملذات

وقد بدت مظاهر تطور هذا اللون واضحة في أمور كثيرة منها :عدم الالتزام بالمقدمات التقليدية ، فكثيرا ما كانوا يلجون في الموضوع مباشرة ، انعكاس بيئتهم الشعرية على صورهم ، فجاءت متطورة تراوحت بين الصورة المجردة البسيطة الى الصورة المركبة ، اتسمت هذه القصائد بالطول باستثناء بعض المقطوعات القصيرة ، قسموا قصيدة الرثاء إلى عدة محاور منظمة ، ظهور ما يسمى بشعر الاستصراخ والاستغاثة بالدول المجاورة ، أسلوب المقارنة بين حال أهل المدينة قبل وبعد الاحتلال .

وتلخصت نتائج هذا البحث بالآتي : كانت بداية هذا الشعر مشرقية نمت وتطورت على يد الأندلسيين ، يعتبر هذا اللون وثيقة تاريخية سجلت أبرز الأحداث في هذه الحقبة ، عادة ما تنتهي قصيدة الرثاء بطلب العون والنجدة ، واستنفار همم العرب المغاربة لإغاثة إخوانهم المنكوبين ، امتاز هذا الشعر بتنمية العاطفة الدينية التي امتزجت بالعاطفة الإنسانية ، صور هذا الشعر عواطف الجماعة ولم يقتصر على الذات الفردية ، عبر الشعراء عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى سقوط الأندلس .

رثاء المدن الأندلسية من القرن الخامس حتى سقوط غرناطة :

من يتأمل تاريخ دولة الإسلام في الأندلس ، يجدها تعرضت لأخطار متعددة ، ونكبات متوالية ، منها ما هو داخلي تمثل في التناحر على السلطة بين الحكام والأمراء وما رافق ذلك من فتن ، وخارجي تمثل في تكالب الممالك النصرانية واتحادها في حركة استرداد عنيفة ، بهدف انتزاع هذا الملك من أيدي العرب ، وقد بدأت أهدافهم في التحقق ، بسقوط "بربشتر" ٤٥٦هـ ، "وطليطلة" ، "وبلنسية" ، وبعد أقل من عقدين بدأ عقد الدولة الأندلسية ينفرط ، وأخذت المدن تتزلق مسرعة في منحدرات الاحتلال ، وكأنها في سباق إلى الهاوية ، فسقطت "قرطبة" تلتها "بلنسية" مرة أخرى ، بعدما حررها و"بربشتر" القائد المرابطي "يوسف بن تاشفين" ، في المرة الأولى ، ولحقت محافل الانكسار "شاطبة" "وجيان" ، "واشبيلية" ، "ورُنده" "وغرناطة". فسكن الأنين المرّ نفوس المسلمين كلما توجهت أفكارهم نحو هذا الفردوس المفقود والنعيم الذي سكن الذاكرة دهرا.

أولا:- جذور هذا الفن وأصوله في الشعر العربي القديم :

البكاء والندب والنواح ألوان عرفتها الأمم السابقة منذ أن بزغ فجر التاريخ وانبثقت الحضارات ، فهذا الفن الشعري "وجد عند كل الشعوب والأمم بادية وراقية متحضرة"[1] ، فتجلى رثاء المدن والدول والقصور في مراثي

---

[1] ضيف ، شوقي : الرثاء ، سلسلة فنون الأدب العربي ، مصر ، دار المعارف ، ط١ ، ص٩.

الشعب السومري[٢] ومن أشهر المراثي السومرية مرثية شهيرة لمدينة "نفّر" وبكائيات على خرائب "سومر" ومدينة "أور" والمسرح الديني السومري[٣] وعلى أنين حضارة سومر بكت الحضارة الأكادية "بابل آشور"[٤] ففي مدينة "بابل" مرثية للشاعر البابلي "كتبي إيلاني مردوك" [٥] تتحدث عن تدمير المدينة على يد "إيرا المحارب" ، وبكاء أهل بابل عليها.

وإذا تركنا شمال الجزيرة إلى جنوبها ، فإننا سنعثر على مجموعة من المراثي قيلت إثر انهيار "سد مأرب" الذي ضرب بسقوطه المثل " تفرقوا أيدي سبأ"[٦] لأن سقوطه أدى إلى هجرتهم من بلادهم وبهذا نصل إلى نتيجة ، أن رثاء المدن والمعابد سنة متبعة منذ أقدم العصور.

---

(٢) سومر: منطقة في بلاد ما بين النهرين ، بالقرب من الخليج العربي ، ظهر السومريون حوالي القرن الرابع قبل الميلاد ، ومن مدنهم أريدو ، وأور ، وأرول ، وكانت ديانتهم غنية بالمراسم السحرية . لمزيد من المعلومات ينظر: عبودي ، هنري س ، معجم الحضارات السامية ، طرابلس ، لبنان ، ط٤ ، ١٩٩١ ، ص٥١٢.

(٣) الشوّاف ، قاسم ، وأدونيس : ديوان الأساطير سومر وأكار وأشور ، الكتاب الثاني الآلهة والبشر ، بيروت ، دار الساقي ، ١٩٧٧ ، ص٣٦٩.

(٤) بابل: بكسر الباء اسم ناحية من الكوفة والحلة ، يُنسب إليها السحر والخمر ، ورد ذكرها في القرآن الكريم . لمزيد من المعلومات ينظر: الحموي ، شهاب الدين ياقوت : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ٣٠٩/١.

(٥) كونتينو ، جورج : الحياة اليومية في بابل وآشور ، ترجمة : سليم طه التكريتي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط٢ ، ص٢٥.

(٦) علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، بلا تاريخ ، ٢٥٨/٩.

أما في العصر الجاهلي فقد كان للمعتقدات التي ورثها الجاهليون عن الأمم السابقة ، دور كبير وتأثير واضح ، فقد اتصل الجاهلي بالأمم المجاورة وارتحل هنا وهناك ، وتأثر بزوال الحضارات والممالك والملوك ومدنهم الزاهرة واتخذها عبرة في أشعاره ، ويمثل "الأعشى"[٧] الذي اشتهر بحله وترحاله ، وطوافه في البلاد مذكرا بالأمم السابقة ، وأخذ العبرة مما جرى لملوكها وممالكها الذاهبة ، التي كان لها عزٌ وجاه فأصبحت خبرا بعد عين ، فهذا "قصر ريمان" الذي شهد حضارة اليمن ، والذي استولى عليه الفرس وهدموه ، فقد بكاه الأعشى قائلا[٨] :

يا من يرى ريمان أمســـ ... ـى خاويا خربا كِعابــه
أمسى الثعالـب أهلـــه ... بعد الذيــن همو مآبــه
بكرت عليه الفرس بعـــ ... ـد الحُبشِ حتى هدّ بابــه
فتراه مهـدوم الأعـــا ... لي ومرّ مسجولٌ ترابــه
ولقــد أراه بغبطـــةٍ ... في العيش مُحضرا جنابه
فخوى وما من ذي شبا ... ب دائم أبـدا شبابــه

أما في العصرين الإسلامي والأموي ، فضاقت مساحة هذا اللون من الرثاء إلى حد كبير ، لتتسع مرة أخرى في العصر العباسي ، فقد كثرت

---

(٧) الأعشى : ميمون بن قيس بن جندل بن شرحبيل ، يكنى أبا بصير ، أحد أصحاب المعلقات – لمزيد من المعلومات ينظر : فاخوري ، حنا : الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ص٥٥٣.

(٨) الأعشى ، ميمون بن قيس ، ديوانه ، شرح وتعليق : الدكتور محمد حسين ، مكتبة الآداب ، بلا تاريخ ، ص٣٣٩.

الدموع في هذا العصر على الرغم من الحضارة التي ازدهرت فيه ، فلا تفوتنا بغداد عاصمة الخلافة ، التي أثقل حزنها أفئدة الشعراء أيام فتنة الأمين والمأمون يقول "الخريمي"[٩] في البكاء عليها[١٠] :

يا بؤس بغداد دار مملكةٍ ... دارت على أهلها دوائرها
حلت ببغداد وهي آمنةٌ ... داهيةٌ لم تكن تحاذرهـــا

ومن المدن العريقة التي رثاها العباسيون مدينة "البصرة"[١١] التي دمرها الزنج في عهد الخليفة "المعتمد" ، وفي رثائها قال "ابن الروميّ"[١٢] متوجعا بعدما تحولت المدينة إلى بعد توثيقي ، وإلى بنية كنائية ترميزية ضاجة بالوجد والاغتراب قال: [١٣]

---

[٩] الخريمي : اسحق بن حسان ، يكنى أبا يعقوب ، والخريمي مولى لعمارة بن خريم بن عمرو بن ذيبان ، والخريمي من شعراء الشعوبية ، لمزيد من المعلومات ينظر : الطبري ، محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف القاهرة ، ط٢ ، بلا تاريخ ، ٤٤٩/٨.

[١٠] الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ٤٥٠/٨.

[١١] نكبة البصرة : المدينة العراقية الثانية ، حلت بها وبأهلها نكبة فادحة في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ) على أيدي الزنج بزعامة "علي بن محمد" الذي أوقع بأهلها وأحكم السيف في رقابهم ، ينظر الطبري : تاريخ الملوك والأمم ، ٢٣٠/٨.

[١٢] ابن الرومي : شاعر عباسي ولد في بغداد ، ونشأ يتيما ، غلب عليه التطير والتشاؤم له قصائد مشهورة في رثاء ولده ، لمزيد من المعلومات ينظر : فاخوري ، حنا : الجامع في تاريخ الأدب العربي القديم ، بيروت دار الجيل ، ط١ ، ص٧٥٧.

[١٣] المصدر السابق : ص٧٥٨.

ذاد عن مقلتي لذيـذ المنـــام شُغْلُها عنه بالدموع السِّحام
أي نوم من بعد ما حلّ بالبصـ ـرةِ ما حلّ من هنات عظام

هذه بعض الآهات التي تصدعت عن أرواح الشعراء في العصر العباسي. وقبل ذلك سبقتها أنات كثيرة منذ القدم ، فالوازع هو الوازع ، والفكر هو الفكر منذ عهد جلجامش إلى يومنا هذا ، فرثاء المدن فنٌّ قديم يتجدد ، ولعل ما حل بالأندلس من نكبات وزلزلة للممالك الراسخة والمدن الجميلة ، جعل صوت هذا الفن يعلو ويعلو ليثبت رسوخه وتأصله في هذا العصر ، فهذه الطبيعة التي ألهمتهم سحر القوافي وجمال الأوزان حركت في نفوسهم أصدق المعاني وأجمل الأحاسيس تجاه ممالكهم ومدنهم التي تسقط الواحدة تلو الأخرى في سلسلة دموية حزينة ، وبضياع غرناطة آخر معقل للمسلمين ضاع وطن كان للمسلمين فيه صولات وجولات.

المسارات التي سار بها رثاء المدن الأندلسية :

سار رثاء المدن الأندلسية في ثلاثة مسارات **أولها** : رثاء المدن التي كانت عامرة فخربت جراء "الفتنة البربرية"[١٤] والاحتراب الداخلي وصراع

---

[١٤] **الفتنة البربرية** : حدثت عام ٣٩٩هـ واستمرت حتى عام ٤٢٢هـ ، بعد سقوط الدولة العامرية التي أسسها المنصور بن عامر ، وترجع أسباب الفتنة إلى قيام "عبد الجبار" المهدي وأنصاره بالانقلاب على الدولة العامرية وإسقاطها ، وقام بدوره بملاحقة البربر واضطهادهم مما أدى إلى قيام الفتنة التي أدت إلى تدمير المدن الأندلسية ، لمزيد من المعلومات حول الفتنة البربرية ينظر: مؤنس ، الدكتور حسين: موسوعة تاريخ الأندلس "تاريخ فكر حضارة تراث" ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط١ ، ١٩٩٦ ، ج١/٤٨٧-٤٨٨.

المناصب ، ويمثل هذا اللون "أبو اسحق الألبيري"[١٥] الذي اشتهر برثاء المدن الأندلسية ، ولاسيما بلدة :"البيرة". "وابن شُهيد"[١٦] الذي بكى "قرطبة" عاصمة الخلافة ، و"السميسر"[١٧] الذي بكى "الزاهرة".

الاتجاه الثاني: رثاء الممالك التي سقطت على يد القائد المرابطي "يوسف بن تاشفين" ومن هذه الممالك؛ "مملكة اشبيلية" ، "ومملكة بطليوس" ، "ومملكة المرية" وغيرها من الممالك التي تكونت بعد عصر الخلافة والفتنة البربرية.

الاتجاه الثالث : يمثله الشعر الذي واكب سقوط المدن الأندلسية في يد الأعداء النصارى ، فبكى هذه المدن واصفا ما حل بها من خراب وتدمير وهدم للمساجد ، وقتل للسكان حينا وتنصيرهم أحيانا.

---

[١٥] **الألبيري** : أبو اسحق إبراهيم التجيبي الغرناطي الألبيري ، عربي الأصل ، عالم حديث ، اشتهر بقصيدته المعروفة التي حرض بها أهل غرناطة على الفتك باليهود . ينظر المقري : نفح الطيب ، ٤/١٣٢-١٣٣.

[١٦] **ابن شُهيد** : أحمد بن عبد الملك شاعر أندلسي عاش في فترتي الدولة العامرية والفتنة البربرية ، لم يغادر قرطبة وشهد مأساتها ، كان ناثرا وشاعرا أخذت الترجمة من ديوان ابن شُهيد ، حققه الدكتور محي الدين ذيب ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٧ ، ص٢٤.

[١٧] **السميسر الألبيري** : هو أبو القاسم خلف المعروف بلقبه "السميسر" أصله من ألبيره قرب غرناطة ، هرب إلى المرية بعد أن هجا البربر ، وبقي ففيها إلى أن توفي حاكمها "المعتصم بن صمادح" ، أخذت الترجمة من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ق٢ ، م٢ ، ٨٨٢.

ثانيا: أسباب تطور هذا الفن في الأندلس :-

الواقع أن رثاء المدن الأندلسية التي تهاوت في قبضة الممالك النصرانية ، يشكل ملمحا بارزا من ملامح الشعر الأندلسي ، وقد وصف الشعراء والأدباء الدوافع التي أدت إلى هذا السقوط والانهيار ووصف ما حلّ بأهلها من قتل وسبي وتشريد. وإذا كان أصحاب السياسة ، عملوا جاهدين على تكريس الانقسام ، وتمزيق الوحدة الأندلسية ، وترسيخ الفرق بين أجزائها بحدود رسموها لدويلاتهم في بداية القرن الخامس الهجري ، فإن الشعراء - وإن كان حب المدينة يأسرهم- ، ظلّوا ينظرون إلى الأندلس كيانا موحدا ، حتى في أحلك فترات التاريخ الأندلسي ، ولعل أبرز الأسباب التي أدت إلى تطور هذا الفن ما يأتي :-

الفتنة البربرية :

امتازت هذه الحقبة من الزمان "٣٩٩-٤٢٢هـ" ، بالاضطرابات والحروب الأهلية والخوف والتمزق ، وتدمير مدن كانت عامرة فخربت ، وانقلب فرحها حزنا ، - وقد ورد ذكر الفتنة في صفحات سابقة- وما دام انكسار المكان يحتل حنايا النفس البشرية ، فإن الذاكرة تلح على الشاعر الذي ذاق وبال هذه الفتنة أن يبكيها ويندب ما حلّ بها. ولعل من أشهر الشعراء الذين مزقتهم ريح الفتنة ، الشاعر الرقيق "ابن شُهيد" الذي أرّقه ما حلّ ببلدة "قرطبة"[١٨] من دمار وترويع لأهلها وخراب أهلك الشجر والحجر ،

---

[١٨] **قرطبة** : عاصمة الدولة الإسلامية في الأندلس منذ تأسيسها حتى التفكك على يد ملوك الطوائف ، ويحمل اسم قرطبة معنى الشموخ والارتفاع ، حيث تقع على --

فبكاها برثائية طويلة منها قوله: [١٩]

ما في الطلول من الأحبة مُخْبِرُ ... فمن الذي عن حالها نستخبرُ
لا تسألن سوى الفراق فإنه ... ينبيك عنهم أنجدوا أم غَوَّروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا ... في كل ناحية وباد الأكثرُ
جرت الخطوب على محل ديارهم ... وعليهم فتغيرت وتغيروا
فدع الزمان يصوغ في عرصاتها ... نورا تكاد له القلوب تنوّر
فلمثل قرطبة يقلُّ بكاء من ... يبكي بعين دمعها متفجر
في كل ناحية فريق منهم ... متفطرٌ لفراقها متحير

والناظر في مقدمة القصيدة يلاحظ سير ابن شُهيد على درب المشارقة بوقوفه على الأطلال ، وهناك رابط بين الوقوف على الأطلال والرثاء ، كما يذكر بعض النقاد . وفي رثاء المدن التي دُمّرت في عهد الفتنة البربرية يطالعنا "السميسر الألبيري راثيا ضاحية جميلة من ضواحي قرطبة ، إنها "الزهراء" أو ما تسمى "زاهرة قرطبة" ، وهي من المدن التي أسسها المسلمون بعد الفتح ، وقد استغرق بناؤها خمسة وعشرين عاما ، هاجمها

-- سطح جبل معروف بجبل العروس ، تألقت وشع فيها نور العلم والحضارة في عهد الخلافة في الأندلس ، لمزيد من المعلومات ، ينظر سالم ، السيد عبد العزيز: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٩٧ ، ط١ ، ١/٥.

[١٩] **ابن شهيد** : الديوان ، ص٧٦.

البربر ، ونهبوا كثيرا مما فيها[٢٠] ، وقد روّع الشاعر ما حلّ بها من دمار وخراب ، فبكاها بأبيات جمع فيها عصارة آهاته ودموعه قائلا[٢١]:

وقفت بالزهراء مستعبـرا ... معتبـــرا أنـدب أشتاتـــا
فقلت يا زهرا ألا فارجعي ... قالت: وهل يرجع من ماتا ؟!
فلم أزل أبكي وأبكي بها ... هيهات يغني الدمع هيهاتـــا
كأنما آثار من قد مضى ... نـــوادبٌ يندبـــن أمواتـــا

وفي هذه المقطوعة الصغيرة أحالت كثرة دوال البكاء الأبيات إلى لوحة بكائية صور فيها الشاعر حزنه وحسرته وشوقه ، ولم يقتصر على تصوير شدة بكائه فحسب ، بل امتد إلى تصوير التفاعل الفني والنفسي بين الشاعر وآثار الزهراء ، وذلك عندما صورها نساء يندبن أمواتا.

---

[٢٠] سالم ، السيد عبد العزيز ، تاريخ وحضارة العرب في الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ، ١٩٨٨ ، ص٤٥.

[٢١] الشنتريني ، ابن بسام /ق٢ م٢ /٨٨٣

سقوط "بربشتر"[٢٢] ، وكارثة "طليطلة"[٢٣] ، ومأساة "بلنسية"[٢٤] :

مأساة بربشتر ، أول نكبة حدثت في الأندلس على يد الأعداء النصارى ، أيقظت ضمير الأمة الإسلامية ، بدأت مأساتها عندما أغارت عليها قوة من النورمان تقدر بعشرة آلاف فارس ، لمدة أربعين يوما ، دافع عنها أهلها دفاع بطولة ، ولكنها سقطت عام ٤٥٦هـ ، فنكلوا بأهلها وهتكوا أعراض النساء ، وأعملوا السيف في الرقاب ، وقد وظف مجموعة من الأدباء

---

[٢٢] بربشتر: مدينة أندلسية ، تقع على بعد ستين كيلو مترا شمال سرقسطة ، فتحت على يد موسى بن نصير . لمزيد من المعلومات ينظر: ابن الكردبوس : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق: أحمد مختار العبادي ، مدريد ، معهد الدراسات الإسلامية ، ١٩٧١ ، ص٧٢.

[٢٣] **طليطلة** : مدينة تقع في شبه جزيرة ايبيريا إلى مسيرة ستين ميلا إلى الجنوب من مدريد ، ما يميزها حدائقها الغنّاء وزروعها المختلفة ، وهي المدينة سقطت في يد "ألفونسو" إلى غير رجعة ، ينظر الحميري ، أبو عبد الله بن محمد: صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من الروض المعطار ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، بيروت ، دار الجيل ، ط٢ ، ١٩٨٨ ، ص٣٩٣. وابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص٩٣.

[٢٤] **بلنسية** : بستان الأندلس "لكثرة رياضها وتنوع أشجارها" مدينة جميلة تقع شرقي الأندلس على بعد أربعة كيلو مترات من البحر المتوسط ، حوصرت وصمدت بقيادة واليها "القاضي الجحاف" ولكنها سقطت في النهاية ٤٨٧هـ ، تم إحراق القاضي الجحاف على مرأى من أهله . لمزيد من المعلومات ، ينظر ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس ، ص٨٤.

والشعراء أقلامهم لنجدتها والدفاع عن قضيتها وعلى رأسهم الشاعر "ابن العسّال"[٢٥] الذي وصف مأساتها قائلا: [٢٦]

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تحظ لكن شأنها الإصماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جيلٌ ولا بطحـــاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... في كلّ يوم غـــارةٌ شعـــواء
ماتت قلوبُ المسلمين برعبهم ... فحماتها فـي رعبهم جبنـــاء

نلاحظ أن الشاعر هنا يقيم موازنة غير متكافئة بين طرفين يشكلان ثنائية دلالية ، فالطرف الأول يتمثل بالأعداء الذين هتكوا حرمة "بربشتر" ولم يبق فيها قصر ولا سهل إلا عاثوا فيه فسادا ، أما الطرف الثاني فيتمثل بالمسلمين الذين تقاعسوا عن حماية "بربشتر" وجبنوا أمام الأعداء ، بعد أن ماتت قلوبهم ودبّ الرعب فيها ، والقصيدة طويلة جدا رسم الشاعر فيها لوحات إنسانية تفيض حزنا ولوعة ، وبعد مأساة استمرت سنوات تمكن "يوسف بن تاشفين" من تحريرها وردّها إلى حياض المسلمين عام ٤٨٧هـ.

طليطلة وكارثتها :

سقطت طليطلة واسطة العقد في أيدي النصارى ، ولم تستطع جيوش المرابطين والموحدين إخراج هذا المرض الخبيث من الجسد الأندلسي فبقيت

---

[٢٥] **ابن العسال** : أبو محمد عبد الله بن فرج الأنصاري ، ولد في طليطلة في مطلع القرن الخامس ، تولى القضاء في طلبيرة ، ثم عاد إلى طليطلة ، ولما استولى عليها الاسبان عام ٤٧٨هـ ، انتقل إلى غرناطة ، كان فقيها زاهدا غلب عليه حفظ الحديث. للمزيد ينظر ابن سعد ، علي بن سعيد: المغرب في حلى المغرب ، حققه وعلق عليه: شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٢١/٢.

[٢٦] الحميري ، الروض المعطار ، ص٩١.

أسيرة القتل والترويع إلى غير رجعة ، يبكيها الشعراء ويتحسرون على مجدها الإسلامي الزائل ، ويحرضون على الجهاد لتحريرها ، فهذا الشاعر المجهول يرسم صورة وجدانية مثيرة يحاول من خلالها تصوير مشاعر الحزن والأسى التي انتابته إثر سقوطها.

فقال يرثيها: [٢٧]

لثكلك كيف تبتسم الثغور	سرورا بعدما بنت ثغور
أما وأبي هدّ منه	ثبير[٢٨] الدين فانصل الثبور
لقد قصمت ظهور حين قالوا	أمير الكافرون له ظهور
لقد خضعت رقاب كن غلبا	وزال عتوها ومضى النفور

لقد جاءت صورة المرأة الثكلى مفعمة بالإشعاعات الدلالية التي تنسجم مع الحدث الجلل ، واستثمرت المثيرات الوجدانية من خلال الصور الفنية ذات الكثافة النفسية . والقصيدة طويلة ترسم بدقة الحالة التي كانت عليها طليطلة. ولم تكن كارثة طليطلة آخر المآسي ، بل نزلت مصيبة ثالثة زلزلت كيان الأمة الإسلامية ، وتمثلت بسقوط بلنسية في يد "القمبيطور" عام ٤٨٧هـ ، هذا الذي روع الناس بسياسة إحراق أهلها أحياء ، وحرق المعالم الإسلامية وتدميرها ، فالبلنسيون الذين أرهقهم الحصار الذي استمر لأكثر من عشرين شهرا ، اضطروا إلى أكل القطط والفئران ، وجثث موتاهم ، كما اضطرهم الجوع إلى مغادرة المدينة ، على الرغم من تهديد "القنبطور" بإحراق

---

[٢٧] الحميري : الروض المعطار ، ص٩١.

[٢٨] ثبير: أعلى جبال مكة وأعظمها.

كل من يغادرها حيّا ، فأحرق في يوم واحد ثمانية عشر رجلا علانية[٢٩] . وفي عام ٤٩٢هـ وبعد محاولات عديدة من القائد المرابطي "يوسف بن تاشفين" تم تحريرها وقد روع الشعراء والكتاب ما حلّ بها من تدمير وإحراق ، ومن بين هؤلاء ابن بلنسية الشاعر" ابن خفاجة "[٣٠]الذي رثاها بأربعة أبيات قائلا: [٣١]

عاثت بساحتك العـــدا يا دار ومحا محاسنك البلى والنـار
فإذا تـردد في جنابك ناظـــرٌ طال اعتبار فيك واستعبـار
أرضٌ تقاذفت، الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان في عرصاتها "لا أنت أنتِ ولا الديار ديار"

لقد غاب اسم بلنسية من الأبيات ، وظهر بدلا منه لفظ التنكير "دار" في البيت الأول و"أرض" في البيت الثالث ، ولعل سمة التنكير ترتد إلى الفعل التدميري الذي أحدثه الروم فيها.

---

(٢٩) لمزيد من المعلومات ، المقري: نفح الطيب ، ٤/٤٥٥

(٣٠) ابن خفاجة : إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة ، ولد عام ٤٥١هـ ، في بلدة شقر القريبة من بلنسية في شرقي الأندلس ، وهي بلدة جميلة تعرف باسم جزيرة شقر لإحاطة نهر شقر فيها من أكثر جهاتها ، عاش حياة هادئة في عصري الطوائف والمرابطين ، وأثر حياة الاطمئنان والدعة في ظل عصر حافل بالاضطرابات والفتن. للاستزادة ينظر : الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص١٠٣.

(٣١) ابن خفاجة ، ديوانه ، تحقيق : الدكتور سيد غازي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، بلا تاريخ ، ص٣٥٤.

الفتن التي نشبت بين ملوك الطوائف ، والتي أدت إلى سقوطها على يد المرابطين :

وما تبع ذلك من بكاء بعض الشعراء على هذه الممالك بدموع غزيرة ، ومن أشهر هذه الممالك "مملكة بني عباد" في اشبيلية وأسر ملكها "المعتمد بن عباد"[٣٢] ، وقد رثى مملكة بني عباد مجموعة من الشعراء على رأسهم "ابن اللبانة"[٣٣] ، التي رثاها قائلا: [٣٤]

تبكي السماء بدمع رائح غادي ... على البهاليل من أبناء عبـــاد
على الجبال التي هدّت قواعدها ... وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
عريسة دخلتها النائبـات علـى ... أســـاور لهم فيهـــا وأســـاد
وكعبة كانت الآمال تعمرهـــا ... فاليوم لا عاكف فيها ولا بـــاد

---

(٣٢) **المعتمد بن عباد** : أبو القاسم محمد بن عباد ، ولد في ربيع سنة ٤٣٢هـ ، في مدينة باجة ، قرب اشبيلية . تزوج اعتماد الروميكية ، جارية ابن رميك ، شارك في معركة الزلاقة . انتهت مملكته على يد يوسف بن تاشفين ، حيث أخذ أسيرا إلى أغمات في المغرب ، وبقي في الأسر حتى وفاته . للمزيد ينظر ابن الأبار ، أبو عبد الله القضاعي : الحلة السيراء ، تحقيق : حسين مؤنس ، لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٣ ، ص١٢٧.

(٣٣) **ابن اللبانة** : محمد بن عيسى اللخمي من أهل دانية ، نشأ يتيما فقيرا ، كانت أمه تبيع اللبن لتعليمه ، نال حظوة عند المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، وأصبح صديقه وشاعره ، أخذت الترجمة عن ، الصفدي ، صلاح الدين خليل: الوافي بالوفيات ، باعتناء هلموت ريتر ، ١٩٦٢ ، ٢٩٧/٤.

(٣٤) السعيد ، الدكتور محمد المجيد : شعر ابن اللبانة الداني ، منشورات جامعة البصرة ، ١٩٧٧ ، ص٤٠.

استثمر الشاعر السماء والأرض لرسم صورة كونية تتلاءم مع أحاسيسه وانفعالاته ، فالسماء تبكي على آل عباد ، والجبال هدّت قواعدها ، فمادت الأرض بمن عليها. وهكذا تطول قصائد الرثاء في هذه المملكة ، ويكثر الشعراء ، ولسنا بصدد استعراض كافة الشعراء الذين رثوا هذه المملكة .

ومن الممالك التي حظيت بالرثاء "مملكة بني الأفطس"[٣٥] في بطليوس ، التي رثاها "ابن عبدون اليابري" [٣٦] بقصيدة طويلة مليئة بالعبر من تقلبات الزمان وأحداثه ومنها قوله: [٣٧]

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نوبة بين ناب الليث والظفر

---

[٣٥] **بطليوس مملكة بني الأفطس** : من ممالك الطوائف الواسعة والكبيرة ، يعني اسمها بلد الجوز ، تتمتع بموقع طبيعي منيع ، أسسها أبو محمد بن سلمة المعروف بابن الأفطس ، بعد انهيار الخلافة الأموية ، وذلك عام ٤١٣هـ ، وهو من أصل بربري . لمزيد من المعلومات ينظر: سالم ، الدكتور السيد عبد العزيز: تاريخ حضارة الإسلام في الأندلس ، ص٨٨ وما بعدها.

[٣٦] **ابن عبدون:** هو عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون اليابري ، كان علما شهيرا من اعلام عصري الطوائف والمرابطين ، شهد تحولات سياسية واجتماعية انعكست على شعره وسير حياته ، ينظر الشنتريتي ، ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق : الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ق٢ ، م٢/٧٣١.

[٣٧] ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١ ، م٢/٨٨٥.

نلاحظ أن هذه القصيدة قد اختطت لنفسها خطابا منحرفا عن المعيار الذي تمسك به الشعراء في غرض الرثاء ، ولم يكتف الشاعر بإغفال الخطاب العاطفي ، بل عمد إلى نفي الحاجة إلى البكاء على الرغم من جلال الموقف الذي يقتضي تعبيرا مفعما بالعاطفة.

ومن الأسباب التي أدت إلى تطور هذا الفن واعتلائه صهوة الشعر في الأندلس:-

تهاون بعض الملوك واسترسالهم في الملذات:

الأدب الأندلسي هو تجل و انعكاس لواقعه الاجتماعي ، وتعبير عنه ، فالأدباء والنقاد الذين لم يعجبهم الحالة التي كانت عليها الأندلس؛ فالضعف والهوان من جهة ، والاسترسال بالشهوات وترك الوطن تتقاذفه المخاطر من جهة أخرى. كل هذا دفع ألسنتهم فلهجت بالتحذير تارة ، وبالتوبيخ والنهي تارة أخرى ، فهذا السميسر الألبيري يذم ملوك الأندلس قائلا: [٣٨]

ناد الملوك وقل لهم ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قمتم
لا تنكروا شق العصا فعصا النبي شققتم

---

[٣٨] ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ق١ ، م٢/٨٨٥

ومن العلماء والفقهاء الشعراء الذين وضعوا أصابعهم على الجرح النازف فقيه الأندلس وعالمها "أبو حفص الهوزني"[٣٩] الذي استشهد في كلمة حق أمام سلطان جائر ، مات شريفا مجاهدا في سبيل توحيد الأندلس في عام ٤٦٠هـ ومن أشعاره التي يحث فيها المعتضد بن عباد على الجهاد قوله: [٤٠]

أعباد جلّ الرزءُ والقوم هجّع ... على حالة من مثلها يتوقع
فلق كتابي من فراغك ساعة ... وإن طال فالموصوف للطول موضع
إذا لم أبث الداء ربّ دوائه ... أضعت؛ وأهل للملامُ المضيّع

ويتوجع شاعر آخر على حال الشعب المثقل بالضرائب والمصائب ، فيصف حال المجتمع الأندلسي قائلا: [٤١]

الروم تضرب في البلاد وتغنم ... والجَورُ يأخذ ما بقى والمغرم
المال يورد كله قشتالة ... والجيش يسقط والرعية تظلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها ... الله يلطف بالجميع ويرحم

---

[٣٩] **أبو حفص الهوزني** : عمر بن حسن الهوزني ، من بيت كبير كانت إليه زعامة اشبيلية قبل دولة بني عباد ، عالم جليل هاجر إلى المشرق ، ثم عاد إلى اشبيلية ، نصح الخليفة المعتضد المستبد من أجل تحرير بربشتر ، فلم يرق له النصح فقتله بيده في قصره ، لمزيد من المعلومات ينظر: ابن بسام: الذخيرة ، ق٢ ، م١/٨٢ وما بعدها.

[٤٠] ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، م١/٢١٠.

[٤١] المقري : نفح الطيب ، ٦/٢١٠.

وهذه أبيات للشاعر الزاهد "أبي اسحق الألبيري" والتي أشعلت ثورة ضد الفساد الذي عمّ البلاد ، ومن أشهر مظاهره اتخاذ بعض اليهود وزراء تحكموا في رقاب المسلمين ومن أقواله: [٤٢]

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الندى وأسود العرين
لقد زلّ سيّدكم زلّة تقرّ بها أعين الشامتين
تخيّر كاتبه كافرا ولو شاء كان من المسلمين
فعزّ اليهود به وانتخوا وتاهوا وكانوا من الأرذلين

وما لبثت هذه الأبيات أن انتشرت في ربوع الوطن كافة ، فهب الشعب وأسقط الوزير اليهودي "ابن النغرلة".

هذا غيض من فيض ، مما قيل في تهاون الحكام وبعض أتباعهم من الرعية ، وتفريطهم في أرض الأندلس. ومن العوامل الأخرى التي أدت إلى سقوط المدن الأندلسية تباعا كأنها في صراع مع الموت ، وأدت إلى تطور هذا الفن واحتلاله مركز الصدارة في الشعر:-

هزيمة الأندلسيين في موقعة العقاب: [٤٣]

معركة العقاب في الانكسار توازيها الزلاقة والأرك في الانتصار ، فبعد أن ينهزم الأندلسيون وتنهار جدران دفاعاتهم ، يجد الشعراء والكتاب

---

[٤٢] الألبيري ، أبو اسحق ، الديوان ، ص٨٩.

[٤٣] **موقعة العقاب** : من أبشع الهزائم التي لحقت بالمسلمين في عام ٦٠٩هـ ، خسروا فيها الكثير من العلماء والفقهاء وأئمة التدريس ، وقعت بين الأذفونش بن شانجة والملك الناصر الموحدي . لمزيد من المعلومات ينظر: الحميري : الروض المعطار ، ص١٣٨.

أنفسهم مضطرين إلى الخوض في موضوعات جديدة تمكنهم من التعبير عن واقعهم الجديد -واقع الهزيمة والانكسار- وقد واكب هذا الانكسار مجموعة من الشعراء في عصري "الموحدين وغرناطة" ولعل من أشهر هؤلاء "ابن الأبار القضاعي"[٤٤] الذي أرقه همّ الأندلس ، فبكاها بمطولات كثيرة لعل أشهرها سينيته التي أحدثت صدى في ربوع الأندلس ، حيث قالها أمام صاحب تونس "أبي زكريا الحفصي"[٤٥] يستصرخه لإنقاذ بلنسية مدينته التي أحبها ومنها قوله: [٤٦]

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وحاش مما تحاشيه حشاشتها ... فانها ذاقت البلوى صباح مسا

---

[٤٤] **ابن الأبار القضاعي** : أبو عبد الله بن محمد ، من أهل بلنسية شرقي الأندلس ، ولد سنة ٥٩٥هـ ، وهو من أعيان المؤلفين والمؤرخين ، فضلا عن قرضه الشعر ، رحل عن بلنسية بعد احتلالها ، من كتبه ، الحلة السيراء ، التكملة لكتاب الصلة ، لمزيد من المعلومات ينظر: الدقاق ، عمر ، ملامح الشعر الأندلسي ، منشورات دار الشرق ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص٣٠٣.

[٤٥] **أبو زكريا الحفصي** : أحد أمراء الدولة الحفصية التي تأسست عام ٦٠٣هـ تولى الحكم سنة ٦٢٥ ، فاستقل بالحكم عن الموحدين. لمزيد من التفاصيل ينظر: ابن خلدون ، عبد الرحمن المغربي ، تاريخ ابن خلدون ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٦ ، ٥٨٩/٦.

[٤٦] المقري ، نفح الطيب ، ٥٨٩/٢.

وكأنما كان ابن الأبار يكتب التاريخ آنذاك ، فإن المدينة سقطت قبل أن يدركها أي من جيوش المسلمين ، ويستمر "ابن الأبار" باستنجاده واستصراخه واصفا حال الأندلس قائلا: [٤٧]

يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عُرُسا
وكل غارية إجحاف نائبة ... تثني الأمان حذارا والسرور أسى

والقصيدة تنطوي على وصف مؤثر لما حلّ ببعض المدن الأندلسية على يد الإسبان .

وفي قصيدة أخرى "لابن الأبار" شك المؤرخون في نسبتها له ، ولكن تاريخ كتابتها ومعانيها ، وإغراء المستغاث بهم بتعداد مزاياهم الحميدة في الذود عن حياض الإسلام ، يؤكد نسبة هذه القصيدة له ، وإذ لم تكن هذه القصيدة ، ترتقي للسينية في قوتها ، إلا أنها من شعر الاستصراخ التي استغاث بها ابن الأبار ، أبا زكريا الحفصي قائلا: [٤٨]

نادتك أندلس فلبّ نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحْبها ... من عاطفاتك ما يقي حوباءها

وتبقى الأندلس في نظر "ابن الأبار" طائرا مكسور الجناح يصارع الموت ولكن قلبه معلق بأبي زكريا كي يجبر كسره قائلا: [٤٩]

---

[٤٧] المقري : نفح الطيب ، ٢/٥٩٠.

[٤٨] ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن القضاعي ، الديوان ، تحقيق: عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٥ ، ص٣٣-٣٤.

[٤٩] المصدر نفسه ، ص٣٤.

تلك الجزيرة لا بقـاء لهـــا إذ لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها الوالي الكريم جناحهـا واعقد بأرشية النجاة رشاءهـا
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد قصرت عليك نداءها ورجاءها

ولو تتبعنا شعر المدن الأندلسية الضائعة ، واستغاثة أهلها بالمغاربة لما انتهينا إلى حد. ولعل من أشهر القصائد التي بكت الأندلس ووصفت حالها بعد السقوط ، قصيدة "لأبي البقاء الرُندي"[٥٠] ، الذي بكى الأندلس عامة متأثرا بقصيدة "ابن عبدون" في رثاء "بطليوس" ، وبقصائد "ابن الأبار القضاعي" وقد بدأها بقوله: [٥١]

لكل شيء إذا ما تم نقصـــان فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سره زمن ساءته أزمـان

نلاحظ أن الرُنديّ بدأ قصيدته بالحكمة والاعتبار من أحداث الدول الزائلة وملوكها ، وبهذا دخل الرُنديّ للقصيدة بمدخل شائق لطيف.

وتتوالى القصيدة بطريقة ممنهجة حتى تصل إلى المدن التي نكبت فيعددها بأسمائها قائلا: [٥٢]

---

[٥٠] **أبو البقاء الرندي**: صالح بن يزيد بن صالح شريف الرندي ، كنيته أبو البقاء ، من أعلام القرن السابع الهجري ، أديب وشاعر وناثر ، عاش في مدينة رُندة ، وفد على بني الأحمر في غرناطة ومدحهم ، ولا تعرف سنة وفاته ، ويعدّه بعضهم خاتمة أدباء الأندلس. لمزيد من المعلومات ينظر : المقري ، نفح الطيب ، ٢٢٤٢/٦.

[٥١] المقري ، نفح الطيب ، ٢٤٣/٦.

[٥٢] المقري: نفح الطيب ، ٢٣٠/٦.

فاسأل بلنسية ما شأن مرسيـــة وأين شاطبة بل أين جيـــان
وأين قرطبة دار العـــلوم فكـم من عالم قد سما فيها له شأن
وأين حمصّ وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياضٌ ومـلآن

وتتقطـع الأنفـاس قهـرا ووجعـا ويبقـى أنـين "رنـدة"[٥٣] يهـز وجـدان الشـعراء ، وعلـى رأسـهم الشـاعر المجهـول ، ويقـال أنـه مـن المريـة فيبكيهـا بقصيدة طويلة بلغت ١٤٤ بيتا بدأها بالبكاء قائلا: [٥٤]

أحقا خبا من جو رندة نورهـا وكسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلـزت منازلها ذات العلا وقصورها
تسلمها حزب الصليب وقادها وكانت شرودا لا يقاد نفورها

وتبقـى العقيدة الإسلامية تدفع الشعراء دفعا لمواكبة الأحداث ولعل أبرز عوامل تطور هذا اللون من الشعر :-

تدمير بعض المقدسات وتحويل بعضها الآخر إلى كنائس

من أشد أنواع القهر التي أذاقها الصليبيون شعبَ الأندلس؛ هدم المساجد تارة وتحويل بعضها إلى كنائس تارة أخرى ، فلم يتوقفوا عن محاربة العقيدة الإسلامية ، من حيث هي فكرة مجردة ، ولم يكتفوا بتحريم ممارسة الشعائر ، بل أمعنوا بالإساءة إلى كل ما هو إسلامي ، فدمروا المساجد

---

[٥٣] رندة : موطن أبي البقاء الرندي ، من المدن التابعة لغرناطة ، خرجت من حوزة العرب سنة ٨٩٠هـ ، تهاوت بعدها مالقة ، ووادي آش ، والمرية ، وبسطة وأخيرا غرناطة ، لمزيد من المعلومات ينظر : خفاجة ، محمد عبد المنعم: قصة الأدب في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص١ ، ١٣٥/١.

[٥٤] خفاجة ، محمد عبد المنعم: قصة الأدب في الأندلس ، ص١٣٥/١.

وأحرقوا الكتب ، وخربوا الحمامات ، فأصبح الاستحمام كالصلاة ، جريمة يعاقب عليها المسلم ، ولعل نكبة طليطلة التي خرجت من حمى الإسلام إلى غير رجعة أكبر شاهد على انتهاك المقدسات الإسلامية ، مما أوجع قلب الشاعر المجهول فقال: [٥٥]

طليطلة أباح الكفر منهـا حماها إنّ ذا نبأ كبيـر
وكانت دار إيمان وعلـم معالمها التي طويت تنيـر
فعادت دار كفر مصطفاة قد اضطربت بأهليها الأمور
مساجدها كنائس! أي قلب على هذا يقرّ ولا يطيـر

وهكذا اتكأ الشاعر على علامات التحول الضدي ، لإبراز الوقائع المفجعة التي حلّت بطليطلة . وهذا "ابن المرابط"[٥٦] الذي فقد تجلده وصبره ، يقف أمام المسجد يتأمل بعين القهر ما طرأ عليه من تحولات فيقول: [٥٧]

كم جامع فيها أعيد كنيسة فاهلك عليه أسىً ولا تتجلـد
القس والناقوس فوق مناره والخمر والخنزير وسط المسجد
أسفا عليها أقفرت صلواتها من قانتين وراكعين وسجـد

---

[٥٥] المقري : النفح الطيب ، ٦/٢٣٠

[٥٦] **ابن المرابط** : محمد بن خلف بن سعيد الأندلسي ، مفتي مدينة المرية وقاضيها ، لمزيد من المعلومات ينظر: نفح الطيب : ٤/٢٥٧-٢٥٨.

[٥٧] ابن خلدون : التاريخ ، ٧/٤٢٠.

ويأسف "ابن الأبار" على انقلاب الأمور ، والتحول العنيف ، فهذا المسجد الذي كان معهدا للدرس ، يذكر فيه اسم الله بكرة وعشيا تحول إلى كنيسة وناقوس يرن ، فقال متحسرا: [٥٨]

يا للمساجد عـــادت للعدا بيعـــا ... وللندى قد غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارسا للمثاني أصبحت دُرُسا

ولا ينسى شاعر المرية الذي شهد الكثير من المدن الأندلسية تتهاوى وتسقط ، فيصف حسرة المساجد ، وأسف المحاريب والمآذن ، ويتوجع على صوت الذكر والترتيل الذي تلاشى وضاع قائلا: [٥٩]

فوا حسرتا كم من مساجد حولت ... وكانت إلى البيت الحرام شطورها

ووا أسفا كم من صوامع أوحشت ... وقد كان معتاد الأذان يزورهـــا

فمحرابها يشكو لمنبرها الجـوى ... وآياتها تشكو الفـــراق وسورهـــا

وكم من لسان كان فيها مرتـــل ... وحفل بختم الذكر تمضي شهورها

وأخيرا يلتفت الرُندي حوله ، فلا يرى إلا المساجد التي حولتها يد الصليبيين إلى كنائس ، غصت جنباتها بالنواقيس والصلبان ولم يبق فيها سوى المحاريب والمنابر التي تبكي الغربة والوحشة فقال: [٦٠]

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبـــان

حتى المحاريب تبكي وهي جامـدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان

---

[٥٨] المقري : نفح الطيب ، ٢١٦/٦.

[٥٩] خفاجة : محمد عبد المنعم ، قصة الأدب في الاندلس ، ١٣٣/١.

[٦٠] المقري : نفح الطيب ، ٢٤٣/٦.

من أجل هذه الأسباب مجتمعة تطور هذا اللون وترعرع ، وتفوق العرب في الأندلس على غيرهم فيه ، حيث صورت قصيدة الرثاء الأندلسية ، انتكاسات الأندلسيين ، فالشاعر الأندلسي لم يكن بمنأى عن الأحداث التي شهدتها بلاده ، فلم تشغله نفسه وطموحاته عن المشاركة الحية والفاعلة في الحدث ، فكان لسان بلده ، ومنبرها المتين في الدفاع بكل ما أوتي من شعر.

ثالثا : مظاهر تطور هذا اللون من الرثاء في الأندلس :

هذا اللون تطور في الأندلس للأسباب السالفة الذكر فعندما انكسر المكان داخل نفس الشاعر الأندلسي أبت ذاكرته وروحه المرهفة ، إلى أن تنقشه شعرا باكيا على صفحات التاريخ ، فما أصاب الأندلس من تدمير وقتل وتنصير دفع هؤلاء الشعراء الى كتابة الحدث بقصيدة دامية ، فخرجت بنواحها وبكائها عن المألوف المشرقي ، فحجم المصيبة حول المكان إلى بنية صاخبة بالوجد والحزن واللوعة ، فلبست هذه القصيدة ثوبا ابتعد بلونه عن الألوان المشرقية المعهودة. ولعل أبرز مظاهر هذا التطور الذي اكتست به قصيدة رثاء المدن ما يأتي:

عدم الالتزام بالمقدمات التقليدية :

التزمت قصيدة الرثاء المشرقية منهجا خطّه الأجداد وسار عليه الآباء والأبناء ، ولكن قصيدة رثاء المدينة الأندلسية ولأسباب كثيرة ، منها كثرة الانتكاسات؛ انحرفت عن هذا الطريق ، فكثيرا ما كانوا يلجون إلى الموضوع مباشرة بلا مقدمات ، فهذا ابن العسال لشدة حرقته ، واعتلاج مشاعره على "بربشتر" يدخل لموضوع الرثاء مباشرة بعقد موازنة غير متكافئة بين طرفين يشكلان ثنائية دلالية ، فالطرف الأول يتمثل بالأعداء الذين هتكوا حرمة

"بربشتر" واحتلوا قصورها وانتشروا فيها ، إذ لم يبق فيها جبل ولا سهل إلا عاثوا فيه فسادا ، وقد جاءت الأفعال الدالة على الحدث دلالة موحية بالقوة والتدمير ، كما في قول : "هتكوا ، جاسوا". أما الطرف الثاني فيتمثل بالمسلمين الذين تقاعسوا عن حماية "بربشتر" وجبنوا أمام الأعداء لذا جاء الفعل الدال على الحدث في قوله: "ماتت" وهكذا يصف "ابن العسال الحدث" في أول القصيدة بقوله: [٦١]

ولقد رمانا المشركون بأسهم لم تحظ لكن شأنها الإحماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها لم يبق لا جيلٌ ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها في كلِّ يوم غارةٌ شعـــواء
ماتت قلوبُ المسلمين برعبهم فحماتها في رعبهم جبنـاء

وهذه مقدمة لقصيدة الشاعر المجهول في رثاء طليطلة التي قال فيها: [٦٢]

لثكلك كيف تبتسم الثغور سرورا بعدما بئست ثغور

فقد جاءت المقدمة صورة وجدانية مثيرة ، صورت المرأة الثكلى مفعمة بالإشعاعات الدلالية التي تنسجم مع الحدث الجلل ، إلا أنها لم تف بالاستحقاقات النفسية التي يكنها الشاعر لطليطلة ، فجاء الاستفهام والجناس والطباق لاستكمال التعبير عن الاحساس بطليطلة .

وينظر ابن الأبار إلى الأندلس وهي تتخبط في محنتها ، وكأنها مخلوق يصارع من أجل البقاء ، ويكاد يفقد الأمل في النجاة ، التي ابتعدت

---

[٦١] الحميري : الروض المعطار ، ص٩٠.

[٦٢] المقري : نفي الطيب ، ٦/٢٣٩.

سبلها ، فلا يجد إلا الاستغاثة بأبي زكريا الحفصي صاحب تونس ، ليقيل العثرة ، فيبدأ القصيدة بعفوية يشوبها القهر والألم قائلا: [٦٣]

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وحاش مما تحاشيه حشاشتها فانها ذاقت البلوى صباح مسا

وبعد سقوط "بلنسية" للمرة الثانية بلا عودة سنة ٦٣٦هـ واستفحال الداء في الجسد الأندلسي نادى "ابن الأبار" صاحب إفريقيا "أبا زكريا الحفصي" في قصيدة مطلعها: [٦٤]

نادتك أندلس فلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها

لقد أصبح الدخول في الموضوع مباشرة طابعا مميزا اتسمت به قصيدة رثاء المدن الأندلسية ، فهذا شاعر المرية المجهول يبكي "رندة" التي سقطت سنة ٨٩٠هـ ، ولعلها من أواخر القصائد التي رثت المدن الأندلسية ، لأن غرناطة سقطت بعد رندة بسبع سنوات. فبدأ قصيدته بالتساؤل المرير بعد انقلاب الأحوال حيث قال: [٦٥]

أحقا خبا من جو رندة نورها وقد كسفت بعد الشموس بدورها

ونظرا للدخول مباشرة في الموضوع ، بلا إقحام القصيدة بالمقدمات التقليدية ، تميزت هذه القصائد بالصدق المطلق الذي وصف الحالة التي كانت عليها المدن الأندلسية ، دون زخرفة ولا استدعاء مقدمات عقيمة لا تليق بالموقف الجلل .

---

[٦٣] ابن الأبار : الديوان ، ص٣٩٦.

[٦٤] المقري : نفيح الطيب ، ٦/٢٣٥.

[٦٥] المقري : نفح الطيب ، ٦/٢٤.

ظهور ما يسمى بشعر استصراخ العواطف الدينية واستنهاض الهمـــم :

حين سقطت "بريشتر" و"طليطلة" و"بلنسية" كان الاستصراخ متمثلا بإيقاظ العاطفة الدينية لدى المسلمين كي يهبوا للتحرير ، ومن الشعراء الذين استنهضوا العاطفة الدينية وهمم المسلمين الشاعر المجهول الذي رثا طليطلة بقوله: (٦٦)

خذوا ثأر الديانة وانصروها فقد حامت على القتلى النسور
ولا تهنوا وسلوا كل غَضْبٍ تهاب مضاربا عند النحـــور
وموتوا كلكم فالموت أولى بكم أن تجاروا أو تجوروا

فهذه دعوة صريحة للثأر والمقاومة والموت ، في إنقاذ طليطلة ، وقد سار الخطاب الرثائي في ثلاثة مسارات متتابعة من حيث الغرض الفني "النتيجة والسبب والعلاج" ومتداخلة وجدانيا ، إذ امتزج الحزن والعتاب والاستغراب والغضب في تلك المسارات الثلاثة.

ففي مسار العلاج بدأ انفعال الشاعر من خلال حشد الأساليب الإنشائية "الأمر والنهي والاستفهام" التي تكشف عن ثورة في أعماق الشاعر ، وتحرض مشاعر المتلقي ، ووظف الصورة الكنائية في قوله : "حامت على الموتى النسور" لتصوير كثرة القتلى في طليطلة ، الذين لم يجدوا من يدفنهم ، وهي صورة مثيرة للعزيمة ، ومحرضة للثأر والانتقام.

وفي نهايات القرن السادس وبدايات القرن السابع ، تحول الاستصراخ إلى استغاثة بأمراء المغرب العربي "بني حفص في تونس" ، و"بني مرين في

---

(٦٦) المقري: نفح الطيب ، ٦/٢٠.

المغرب" ، "وبني زيان في الجزائر"[٦٧] وتذكيرهم بصلة الأرحام بين المجتمعات الإسلامية ، لرد الأخطار الداهمة والتي لا تستطيع الأندلس درها منفردة ، ومن الشعراء الأندلسيين الذين امتازا برقة العاطفة ، شاعر الموشحات ابن اشبيلية "ابراهيم بن سهل الإشبيلي"[٦٨] الذي قال في قصيدته مستصرخا المغاربة للجهاد في الأندلس ، سنة ٦٤٠هـ ، مطلعها: [٦٩]

ورداً فمضمون نجاح المصدر هي غرّة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم لنصر مضمر يبدوا لكم بين العتاق الضمر
خلّو الديار لدار خلد واركبوا غمر العجاج إلى النعيم الأخضر

هذا غيض من فيض مما لهجت به ألسنة الشعراء مستصرخة العاطفة الدينية والجنة التي عرضها السماوات والأرض التي أعدّت للمجاهدين في سبيل الدين والأرض الأندلسية ، ولا تفوتنا صيحات "ابن الأبار" في السينية والهمزية . ومن الملاحظ أن هذه الدعوات كانت تلقى

---

[٦٧] لمزيد من المعلومات حول دول المغرب العربي ينظر: الحجي ، عبد الرحمن علي : التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ) ، دار القلم ، دمشق ، ط٥ ، ١٩٩٧ ، ص٦٨.

[٦٨] **ابن سهل** : ابراهيم بن سهل الاشبيلي (٦٠٥-٦٤٩هـ) ، كان يهوديا فأسلم ، ولد في مدينة اشبيلية بالأندلس . نظم الشعر والموشحات في سن مبكرة ، وبرع فيها ، لقب بشاعر الأندلس والمغرب ، امتاز شعره بالرقة ، ويعزوا النقاد سبب ذلك بقولهم "اجتمع فيه ذل العتق وذل اليهودية" سكن سبتة ، وتوفي غرقا في زورق مع واليها "ابن الخلاص" لمزيد من المعلومات ينظر: المقري : نفح الطيب ، ٥/٧٣.

[٦٩] الاشبيلي : إبراهيم بن سهل ، الديوان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص١٤٠.

صدى فيستجيب لها ولاة المغرب مما جعل غرناطة ورُندة ووادي آش ، تثبت قرنين من الزمان .

تقسيم قصيدة الرثاء إلى عدّة محاور منتظمة وممنهجة :

ومن مظاهر هذا اللون من الرثاء تقسيم القصيدة إلى محاور مرتبة سلسلة يسهل تناولها والتعاطي معها ، وخير مثال على هذا النهج نونية "أبي البقاء الرُنديّ" التي بدأها متأثرا بابن عبدون في الرثائية التي رثى فيها مملكة "بني الأفطس" ، فقد شكى الرُنديّ من الزمان والدهر وغدره وانقلابه وتحوله ، ثم تعداد الأمم الهالكة بقوله: [٧٠]

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ من سره زمن ساءته أزمان

ثم أتبع المحور الأول بمحور المدن الأندلسية التي سقطت تباعا قرطبة ٦٣٣هـ ، بلنسية ٦٣٦هـ ، شاطبة ودانية ٦٣٨هـ ، إشبيلية ٦٤٦هـ ، مرسية ٦٦٨هـ ، فقال فيها: [٧١]

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وابن شاطبة بل أين جيان

وأين حمصٌ[٧٢] وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياضٌ وملآن

والمحور الثالث أو المفصل الثالث العاطفة الدينية التي صبغت بالصبغة الإسلامية ، فقد وصفت القصيدة التحولات التي جرت على

---

[٧٠] المقري : نفح الطيب ، ٢٤٣/٦.

[٧١] المقري : نفح الطيب ٢٤٣/٦.

[٧٢] حمص : هي إشبيلية ، سميت باسم فاتحيها الذين كانوا من سكان حمص سوريا.

المقدسات الإسلامية ، وقد استخدم الشاعر أسلوب التشخيص فقامت هذه الأماكن يندب نفسها والبكاء على الإسلام الراحل ، فقال: [٧٣]

تبكي الحنيفية البيضاء من أسفا كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خاليـــة قد أسلمت ولها بالكفر عمران
حتى المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان

والمحور الرابع في القصيدة ،[٧٤] وكعادة شعراء الرثاء بعد دولة الموحدين وتفكك البلاد ، الاستنجاد بالمغاربة وخاصة بني حفص في تونس حيث قال الرُندي: [٧٥]

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع عقيـان
أعندكمُ نبأٌ من أهل أندلسٍ فقد سرى بحديث القوم ركبان

والمحور الأخير والأكثر أسىً وصف حال القوم بعد الاحتلال فقد تبدلت أحوالهم ، وأعمل السيف في رقاب الرجال ، وسبيت النساء وهتكت الأعراض ، فلم يرحموا طفلا ولا شيخا ولا امرأة ، فيهتز الرُندي لهذه الأهوال قائلا: [٧٦]

---

[٧٣] المقري : نفح الطيب ، ٦/٢٤٤.

[٧٤] لمزيد من المعلومات حول المحاور ينظر: الشكعة ، الدكتور مصطفى ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٣ ، ص٥٥٠-٥٥٤.

[٧٥] المقري : نفح الطيب ، ٦/٢٤٤.

[٧٦] المقري : نفح الطيب ، ٦/٢٤٤.

يـا من لذلّة قوم بعد عزّهـــم أحال حالهـــم كفـرٌ وطغيـــان
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليوم هم في هوان الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهـم عليهم من ثيـاب الـذّلّ ألـــوان

طول القصائد وتناسبها مع حجم الكارثة :

الموقف جلل ، والمصيبة عظيمة ، والأحوال منقلبة ، كل هذا يتطلب من الشاعر أن يسهب في قصيدته ليستوعب كافة محاور الألم ، والدواهي التي يشيب لها الوليد ، ومن ثم الاستنجاد بالمغربي البطل الذي سيخلص هذه المدينة ، وتعداد مناقبه وتحريضه على القتال ، من تحريك العاطفة الدينية لنصرة المساجد التي تبكي غروب الإسلام عنها ، وذلّتها بعد عزّها ، والقتل والسبي وهتك أعراض المسلمات الغافلات ، كلّ هذا يتطلب نفسا طويلا وأبياتا كثيرة لتستوعب هذه الزفرات الحزينة والأنات المتصاعدة. ومن أبرز القصائد التي امتازت بطولها: قصيدة مجهول طليطلة التي بلغت ٧٢ بيتا ، والتي تعتبر ملحمة دعت للمقاومة والثأر والموت من أجل تحريرها ، سينية ابن الأبار ٦٧ بيتا ، همزيته ٩٠بيتا ، قصيدة الرُندي ٤٢ بيتا ، وهناك زيادات كثيرة على هذه القصيدة لبعض الشعراء يصفون بها "غرناطة"[٧٧] ، وأخيرا قصيدة مجهول المرية التي بلغت ١٤٤ بيتا.

---

(٧٧) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع ينظر: المقري: نفح الطيب ، ٦/٢٣٥-٢٤٤.

ومن مظاهر تطور هذا الفن وترسيخ قواعده الثابتة في الأندلس :

انعكاس بيئتهم الشعرية على صورهم الرثائية :

ولعلّ أبرز هذه الصور ، الصورة المجردة أو البسيطة الخالية من المجاز ، ومن أبرز هذه الصور التي وصفت مأساة إشبيلية على لسان "هارون بن هارون"[٧٨] التي تفجع فيها على المجد المفقود ، والتدمير الممنهج ، والقتل الترويعي للكبار والأطفال حيث قال: [٧٩]

فكم أسارى غدت في القيد موثقة ... تشكو أقداما لها من الذّلّ حطما

وكم صريع رضيع ظلّ مختطفا ... عن أمه فهو بالأمواج قد فطما

يدعو الوليد أباه وهو في شغل ... عن الجواب بدمع سال وانسجما

فكم ترى والها فيهم ووالهة ... لا يُرجع الطرف إن حاورته الكلما

ومن الصور المجردة إلى الصورة التشبيهية المركبة في قول الهوزني: [٨٠]

أعيذكم أن تدهنوا فيمسكم ... عقاب كما ذاق العذاب ثمود

---

[٧٨] **هارون بن هارون** : شاعر أندلسي من إشبيلية (حمص) شهد حصارها الذي استمر عاما وخمسة أشهر ، وبعد سقوطها قال هذه القصيدة يصف المجازر التي ارتكبت فيها سنة ٦٤٦هـ . لمزيد من المعلومات ينظر: ابن المراكشي ، ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، بلا تاريخ ، ق/٣ ، ص٣٨٠.

[٧٩] ابن عذاري : البيان المغرب ، ق/٣ ، ص٣٨١.

[٨٠] ابن بسام : الذخيرة ، ق٢ ، م٢ ، ٨٤٠.

فإجمال كلمة "ثمود" ترك للمتلقي استكمال الصورة وتحليلها. وقد تجاوز الأندلسيون التشبيهات إلى نمط أكثر وقعا في النفوس ألا وهي الاستعارة ، التي اعتمد الشاعر عليها في رسم صورة الأندلس الباكية ، وقد ظهرت هذه الاستعارة واضحة جلية في مطلع القصائد كمطلع همزية ابن الأبار: [٨١]

نادتك أندلس فلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها

فقد شبه الأندلس بإنسان ينادي ويصرخ على سبيل الاستعارة المكنية. وقد اعتمد الأندلسيون على أسلوب التشخيص في تصويرهم بعض مظاهر الطبيعة التي شاركت الأندلس البكاء والحزن كما ورد في قول "حازم القرطاجني"[٨٢] حين وصف مظاهر الطبيعة قائلا: [٨٣]

فقد بكت أنهارها بمدامع هام من الوجد لهام ما ارتوى
والنهر الأبيض يبكي شجوه بكل دمع مستفيض ما رقا

---

[٨١] ابن الأبار: الديوان ، ص٣٣.

[٨٢] **حازم القرطاجني** : حازم بن محمد أبو الحسن ، كان شاعرا وأديبا ، قدم أبى تونس ومدح السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر ، ألف كتاب "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" توفي سنة ٦٨٤هـ. لمزيد من المعلومات ينظر: المقري: فتح الطيب ، ٢٣٠/٦.

[٨٣] القرطاجني ، حازم : قصائد ومقطعات ، تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨١ ، ص٦٧-٦٨.

وقد تجاوز الاندلسيون الاستعارة التشخيصية إلى التجسيد والتجسيم فقد استخدم هذا اللون ابن سهل الإشبيلي حين قال: [٨٤]

أنتم أحق بنصر دين نبيكم ... ويكم تمهّد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ... ذاك البناء بكل أملس أسمر
الدين ناداكم وفوق سروجكم ... غوث الصريخ وبغية المستنصر

نلاحظ أن ابن سهل الإشبيلي أبدع بهذا اللون من الاستعارات ، هذا وقد جسد خيالهم مجموعة من الاستعارات والتشبيهات مع الابتعاد قدر الإمكان عن المحسنات البديعية ، فالموقف جلل ، والمصيبة عامة ، كل هذا يحتم على الشاعر ألا يخوض في هذا الموضوع.

استخدام أسلوب المقارنة بين حال المدينة قبل الاحتلال وبعده

إن الاتكاء على إجراء المقارنة بين حال المدن المحتلة القديم والجديد ، قد غدا عنصراً أساسيا من عناصر الشعر الذي يصور أحوال المدن الأندلسية المختلفة ، فالمقارنة تزيد الاحساس بالمأساة وتجعل المصيبة أعمق في النفس ، فكل ما في المدينة من حضارة عريقة ، ومقدسات إسلامية مُصانة ، انقلب إلى خراب ودمار وتبديل أحوال ، وقد صدر ذلك عن شعور صادق مفعم بالحزن ، وعاطفة دينية ملتاعة متأثرة بالأحداث الدامية ، ومن المقارنات وصف "ابن شهيد" الحياة الرغيدة التي كانت عليها "قرطبة" ، ثم يختم قصيدته واصفا انقلاب الحال وتبدل الأحوال قائلا: [٨٥]

---

[٨٤] ابن سهل : الديوان ، ص١٤٠-١٤١.

[٨٥] ابن شهيد : الديوان ، ص٧٧.

يا جنة عصفت بها وبأهلهـا ... ريح النوى فتدمرت وتدمـروا
عهدي بها والشمل فيها جامع ... من أهلها والعيش فيها أخضر
كانت عُراصـك للمتيم مكـة ... يأوي إليها الخائفون فيُنصروا
يا منزلا نـزلت بـه وبأهلـه ... طيرُ النوى فتغيروا وتنكروا
نفسي على آلائها وصفاتها ... وبهائها وسنائهـا تتحسـر
كبدي على علمائها حلمائهـا ... أدبائهـا ظرفائهـا تتفطـر
حزني على سرواتها ورواتهـا ... وثقاتها وحماتهـا يتكـرر

ويلح أسلوب المقارنة على مجهول طليطلة ، فيقارن بين حالها قبل الاحتلال وكيف كانت محصنة منيعة على الأعداء ، جنة للعلم والعلماء ، ثم يحرض على الثورة لتحريرها ، بمقارنتها بعد السقوط ، وقد تشتت أهلها ، وتحولت من دار إيمان إلى دار كفر مرغمة ، ومن مقارنته قوله: [٨٦]

طليطلة أباح الكفر منهـا ... حماها ، إنّ ذا نبأ كبيـر
فليس مثالها إيوان كسرى ... ولا منها الخورنق و السريـر
محصنة محسنة بعيـد ... تناولهـا ومطلبهـا عسيـر
ألم تك معقلا للدين صعبا ... فذلك كمـا شـاء القديـر
وكانت دار إيمان وعلم ... معالمها التي طمست تنيـر
فعادت دار كفر مصطفاة ... قد اضطربت بأهليها الأمـور
مساجدها كنائس أي قلب ... على هذا يقـر ولا يطيـر؟
واخرج أهلها منها جميعا ... فصاروا حيث ساء بهم مصير

---

[٨٦] المقري : نفح الطيب ، ٥/٢٤٠.

ظاهرة انقسام الشعراء ما بين داع للرحيل أو مشجع على البقاء في المدينة المنكوبة :

لقد صور الشعراء في قصيدة رثاء المدينة الأندلسية ، مواقف الأندلسيين من فكرة الرحيل عن المدن المحتلة أو البقاء فيها تصويرا دقيقا ، فوجدناهم ينقسمون فريقين : فريق يدعو إلى الهجرة والنزوح عن المدن المحتلة ، وآخر يدعو إلى الموقف الذي يدعو للرحيل فقد حبه لبلده ، فالأندلسي فطر على عشق موطنه ، بل شكلت مدينته نمطا تأثيريا في نفسه يصعب اقتلاعه والتخلص منه ، ولكن وجه الاحتلال المتجهم المشبع برائحة الدماء والقتل ، دفعه إلى الإلحاح على الرحيل ، ليس تخاذلا ، وإكن هربا من السبي ، والتخاذل أمام الأعداء ، "فابن العسال" لم يكن جبانا عندما طالب الأندلسيين الرحيل عن طليطلة قائلا: (٨٧)

يا اهل أندلس حثوا مطيكم ... فما البقاء بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدوّ لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سفط

لم يتخذ ابن العسال موقفا سلبيا انهزاميا ، حين دعا قومه للرحيل عن طليطلة ، لكن هي دعوة مبطنة مبالغة في الحث والتنبيه والتذكير بالخطر الداهم على مدن الأندلس كافة.

---

(٨٧) المقري : نفح الطيب ، ٣٥٢/٤.

وقد اختلف النقاد في أمر هذه الأبيات فيقول: "أحمد توفيق المدني" "ان هذه الأبيات ما هي إلا دعوة للهزيمة"[٨٨] ويوافقه الدكتور "مصطفى الشكعة" الذي "يعتبر أن هذه القطعة دعوة لتكريس الهزيمة"[٨٩] ويرد "الدكتور الربعي بن سلامة" على هذه الاتهامات قائلا: "هذه ليست دعوة لتكريس الهزيمة ، بقدر ما هي تجسيد لضخامة الخطر ، ومبالغة في تحذير الأندلسيين ، حتى يتجنبوا الوصول إلى هذه النتيجة المأساوية"[٩٠].

ومن الشعراء الذين عبروا عن رفضهم البقاء تحت حكم النصارى شاعر طليطلة المجهول الذي قال: [٩١]

كفى حزناً بأن الناس قالوا ... إلى أين النحول والمسير؟
أنترك دورنا ونفر منها ... وليس لنا وراء البحر دور!
ولا ثم الضياع تروق حسنا ... نباكرها فيعجبنا البكور
يودّي مغرما في كل شهر ... ويؤخذ كل صائفة عشور
فلا دين ولا دنيا ولكن ... غرورٌ بالمعيشة ما غرور
رضوا بالرقّ يا الله! ماذا ... رآه وما أشار به مشير

---

[٨٨] المدني ، أحمد توفيق : انهيار بلاد الأندلس وموقف دول الإسلام واسطنبول من ذلك ، مجلة الأصالة ،ع٢٧ ، ١٩٧٥ ، ص١٨١.

[٨٩] الشكعة ، مصطفى : الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٩ ، ص٥١٤.

[٩٠] الربعي ، بن سلامة: الشعر الأندلسي والتصدي للانهيار ، جامعة قسنطينة ، الجزائر ، مجلة الآداب ، ١٩٩٥ ،ع٢ ،ص١٠٣.

[٩١] المقري : نفح الطيب ، ٢٤٢/٦.

في هذه الأبيات يعبر الشاعر عن ثورة عارمة على جماعة الأندلسيين الذين آثروا البقاء تحت حاكم نصراني ، يؤدون له الجزية وهم صاغرون ، مستغلا العاطفة الدينية بغية إقناعهم مغادرة البلاد .

أما الفريق الثاني فهو يدعو للبقاء في المدن الأندلسية المحتلة ، والثبات فيها ؛ لأن مرارة الغربة والإحساس بالضياع ، أشد مضاضة على النفس من ذل المحتل وجوره .

ومن الشعراء الذين دعوا إلى الثبات في المدينة وعدم الرحيل عنها ، "السميسر الألبيري" في قوله: [٩٢]

قالوا أتسكـــن بلـــدة نفس العزيز بها تهـــون
فأجبتهـــم بتـــأوّهٍ كيف الخلاص بما يكون
غرناطة مثوى الجنين يلذّ ظلمتـــه الجنيـــن

فالعلاقة الوطيدة التي تربط الشاعر بمدينته ، أقوى من الظلم والجور الذي يوقعه المحتل عليه ، فهو سعيد في بقائه فيها ، وإن كان الظلام يخيم على الرجاء ، كسعادة الجنين في ظلمة الرحم. ومن الشعراء الذين أقنعوا الناس بالبقاء بأسلوب منطق هادئ الشاعر "أبو المطرف بن عميرة"[٩٣] الذي حاول جاهدا التأثير في أهل المدينة المحتلة قائلا: [٩٤]

---

[٩٢] ابن بسام: الذخيرة ، م١ ، ق٣٨٣/٢.

[٩٣] **أبو المطرف بن عميرة** : أديب وكاتب وقاضٍ من جزيرة شقر من كورة بلنسية ، لمزيد من المعلومات ينظر: المقري : نفح الطيب ، ٣٧/٥

[٩٤] المقري: نفح الطيب ، ٤٩٤/٤.

كفى حزنا أنا كآمل محصب بكل طريق قد نفرنا وننفر
وأن كلينا من مشوق وشائق بنار اغتراب في حشاه تسعّر
ألا ليت شعري والأماني صلة وقولي ألا ليت شعر محيّر
هل النهر عقد للجزيرة مثلما عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهر
وهل للصبا ذيل عليه تجره فيروز عنه موجه المتكسر

لقد سلك الشاعر في هذه الأبيات مسالك عدة ، للتأثير في المواطن الأندلسي ، وإقناعه بعدم الرحيل عن مدينته الجميلة وتركها للنصارى ، فنار الغربة تتقد في قلب المفارق ، ولظى استعار الحنين تحرق كبده ، فالبقاء صمود تشوبه المعاناة ، ولكن الرحيل شقاء يحالفه ذلٌ وحرمان.

وأخيرا وبعد سرد العوامل التي أدت على تطور هذا الفن ، ومظاهر هذا التطور ، نلاحظ أن الأندلس لم تكن مجرد إقليم جميل بطبيعته الساحرة ، وإنما كانت وطنا للأندلسيين يستمد آلامه وأوجاعه من آلامهم وأوجاعهم ، التي يستمدونها بدورهم من استماتتهم في الدفاع عنه ، لكنه وطن خانه الحظ ، فتوالت عليه الكوارث ، وتداولت مدنه الخطوب والمحن ، وتقاسم أهله النكبات ، فأصبح أطلالا وخرائب موحشة ، لا يقع النظر فيه إلا على ما يثير الأوجاع من تدنيس وتنصير وهدم وترويع ، فقد أصيبت الأندلس بسهم في الصميم ، هتك أستارها ، وكشف عوراتها ، فرحل الإسلام عنها باكيا حزينا ، وحل محلّه الكفر جذلان مبتسما .

نتائج البحث :

تبين لنا بعد أن استعرضنا جذور هذا اللون من شعر رثاء المدن الأندلسية أن هذا اللون انبعث منذ ظهور الحضارات القديمة ، ممتدا باتساع إلى العصر الجاهلي ، وهناك وشائج قربى وصلة رحم ما بين الوقوف على الأطلال وبكاء المكان الذي كان عامرا فرحل أهله وما بين رثاء المدن والممالك ، وفي العصر العباسي استمر بكاء المدن الكبيرة كبغداد والبصرة وما حل بهما من دمار ، ولكن هذا الموضوع تطور في الأندلس تطورا واضحا ، مما أدى اختلاف وجهات نظر النقاد في هذا الموضوع ، فمنهم من عدّه موضوعا جديدا أضافه الأندلسيون إلى الشعر ، ويتبنى هذا الرأي "الدكتور عمر الدقاق" ، والرأي الآخر اعتبره فنا قديما تطور واستوى على سوقه في الأندلس ، ومن الذين تبنوا هذا الرأي "الدكتور عبد العزيز عتيق" وهذا الموضوع اقتضته الحياة السياسية المضطربة التي عاشها الأندلسيون بعد سقوط الخلافة ، وقد توصل البحث إلى عدة نتائج نجملها بالآتي:

- كانت بدايات هذا اللون مشرقية المنبت ، لكنه تطور وازدهر على يد الأندلسيين لظروف أحاطت بهم وعايشوها.
- يعتبر هذا اللون وثيقة تاريخية ، لتاريخ الأندلس وأحوالها منذ سقوط الخلافة الأموية وحتى سقوط غرناطة.
- وضح شعراء رثاء المدن الدور الذي أداه الأدب في الصراع الدائر بين المسلمين والإسبان ، سالكا سبل استثارة النخوة والحمية من أجل ردع الخطر الداهم على البلدان الأندلسية .

- خلا هذا اللون من أي دور للمرأة فيه على غير المعهود في التاريخ العربي.
- عادة ما تنتهي قصيدة الرثاء بطلب العون والنجدة ، واستثارة همم العرب لإغاثة إخوانهم المنكوبين في الأندلس.
- من سمات هذا الشعر ظاهرة الحنين الشديد التي تسري في أوردة هذه القصائد ، فوصف المدن ومعالمها والديار ومعانيها في تفصيل يدعو بالنفس إلى الحسرة والألم .
- تنمية العاطفة الدينية التي مزجت بالناحية الإنسانية؛ فالمساجد تهدم ، وأخرى تحول إلى كنائس ، فالمنابر تشكو والمحاريب تبكي.
- امتاز هذا اللون بعدم الاقتصار على مشاعر الذات وحدها وانما تعداه إلى تصوير عواطف الجماعة والتعبير عن عاطفة الحزن الشامل ، فالنكبات عامة.
- صدق العاطفة وحرارتها ، التي ألهبتها شدة المعاناة وعمق التجربة ، التي نزلت بالأندلس من قتل ودمار وترحيل.
- عبر الشعراء عن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى سقوط المدن الأندلسية ، التي منها فساد الحكم ، والانغماس في اللهو والترف ، والتناحر على السلطة ، والفتن الداخلية.
- شاع في هذا الشعر ذكر القضاء والقدر ، فما حلّ بالأندلس كان قضاءً لا بد من وقوعه.
- لجوء الشعراء في مراثيهم إلى الواقعية وابتعادهم عن الخيال ، فالمصيبة جلل ، والحقائق بادية ظاهرة .

- امتازت قصيدة الرثاء بغزارة الإنتاج الشعري ، وما اشتملت عليه من معانٍ كثيرة ، منها تسليم الأمور إلى الله تعالى ، واستصراخ الملوك واستنهاض الأمم ، ومخاطبة ضمائر المسلمين.
- نضج التجربة الفنية أضفى إلى القصيدة صدقا فنيا ، وتركيزا عاطفيا ، تمثل في التجربة المريرة التي عايشها الشعراء ، فالتهبت مشاعرهم.
- الابتعاد عن النواح والندب ، واستبداله بالتفكير بأخذ العبرة والعظة من أحداث الزمان السابق ، ومصائب الأقوام السالفة.